في مهرجان المتنبي (١)

المتنبي وسيف الدولة

للدكتور أحمد أمين

— ١ —

كان لسيف الدولة ناحية فنية قوية ، لا تقل شأناً عن ناحيته السياسية والحربية ، فهو يحب الفن ويولع به ، ويتذوقه ويساهم فيه .

وقد وردت في ذلك أخبار متفرقة تدل عليه .

فهو مولع بالتصوير ، رغم النزعة الشائعة إذ ذاك في كراهيته ، فيروي صاحب اليتيمة أن سيف الدولة أمر بضرب دنانير للصِّلات في كل دينار منها عشرة مثاقيل وعليه اسمه وصورته ، فأمر يوماً لأبي الفرج الببغاء بعشرة منها ، فقال :

نحن بجود الأمير في حَرَمِ   نرتع بين السُّعُود والنِّعَمِ
أبدعُ من هذه الدَّنانيرِ لَمْ   يَجْرِ قديماً في خاطرِ الكَرَمِ
فقد غَدَتْ باسمه وصُورَتِه   في دهرنا عُوذةً من العَدَمِ

ولعله استوحى ذلك من صورة دنانير الروم .

وأدل على ذلك ما ذكره المتنبي في صفة خيمة لسيف الدولة ، تدلنا

---

(١) أقام المجمع العلمي العربي مهرجاناً للمتنبي في تموز سنة ١٩٣٦ وكان من خطبائه الأستاذ أحمد أمين .

على ذوقه وحبه للفن حقاً ، فقد ذكر المتنبي أن هذه الخيمة أو القبة التي كانت تضرب على سيف الدولة ، كانت قطعة فنية رائعة .

ففيها صورة روضة بديعة لم يحكها السحاب وإنما حاكها النسّاج ، وأغصان الأشجار ترفرف عليها طيور لا تنقص عن الطيور الطبيعية إلا بالغناء .

وفيها صُوَر وحوش يحارب كل جنس عدوه ، ولكنها سُلبت الروح وتسالمت .

وإذا ضربتها الريحُ ماج بعضها في بعض فكأن صُوَر خيل تجول ، وكأن صُوَر الأسود تختتلُ صُوَر الظباء لتصيدها وتدركها .

وفي ناحية من الخيمة صورة ملك الروم ، وصورة سيف الدولة ، وملك الروم يسجد لسيف الدولة ، ويخضع له ويتذلل ، ويقبّل بساطه ، إذ لا يقدر على تقبيل كمه ويده لارتفاع مكانه .

وبين يدي سيف الدولة الملوك متكئين على مقابض سيوفهم من هيبته .

وفي حواشي الخيمة لآلئٌ من النسيج تكاد لا تختلف عن اللآلئ الحقة إلا أنها لم تنظم ولم تثقب . في ذلك يقول المتنبي :

عليها رياضٌ لم تحكها سحابةٌ ... وأغصانُ دوحٍ لم تغنَّ حمائمُه
وفوق حواشي كلِّ ثوبٍ موجَّهٍ ... من الدرِّ سمطٌ لم يثقّبه ناظمُه
ترى حيوانَ البرِّ مصطلحاً بها ... يحارب ضدٌّ ضدَّه ويسالمُه
إذا ضربته الريحُ ماج كأنه ... تجول مذاكيه وتدأى ضراغمُه
وفي صورةِ الروميِّ ذي التاج ذلةٌ ... لأبلجَ لا تيجانَ إلا عمائمُه
تقبّل أفواهُ الملوكِ بساطَه ... ويكبُر عنها كمُّه وبراجمُه
قياماً لمن يشفي من الداء كيُّه ... ومن بين أذني كلِّ قرمٍ مواسمُه
قبائعُها تحتَ المرافقِ هيبةً ... وأنفذُ مما في الجفونِ عزائمُه

وهي صورة بديعة ، تشهد بحب سيف الدولة للتصوير والفن .

ثم أولع بالموسيقى ، فكان في قصوره الجواري المغنيات ، ويروون أن الفارابي لما زاره عرض عليه سيف الدولة قيانه فأسمعنه ، فأسمعه الفارابي من قانونه خيراً مما سمع .

وأنمى من هذا وأظهر ناحية سيف الدولة الأدبية ، ولم يذكر المؤرخون لنا كيف ثقف وكيف علم ، إلا أنهم ذكروا أنه كان من شيوخه أبو ذر الشاعر وابن خالويه اللغوي النحوي ، وأنه درس دواوين الشعر القديم ، وكانت تغذي عواطفه العربية ، من تمدح بالشجاعة والكرم كما كان يعرف أيام قبيلته (تغلب) ومفاخرها .

وتدل الدلائل كلها على دقة حسه الأدبي وذوقه الفني . يقول فيه المتنبي :

عليمٌ بأسرار الديانات واللغى ... له خطراتٌ تفضحُ الناسَ والكتُبا

فهل نستدل بهذا على أنه كان يعرف غير اللغة العربية أيضاً ؟ أظن ذلك ؛ فابن خلكان يروي في ترجمة الفارابي أنه كان لسيف الدولة مماليك ، وله معهم لسان خاص يحدثهم به .

ومن مظاهر حبه للأدب وسعة اطلاعه وحسن ذوقه أنه كان كثيراً ما يتمثل بأبيات قديمة ، وتعجبه أبيات يرددها ، أو قافية يستملحها ، أو معنى يستجيده ؛ فيطلب من الشعراء أن يجيزوها أو يقولوا على قافيتها .

فمرة — مثلا — ورد على خاطره بيتان للعباس بن الأحنف :

أمينيَّ تخاف انتشار الحديث ... وحظّيَ في ستره أوفر
ولو لم أصنه لبقيا عليـ ... ـك نظرتُ لنفسي كما تنظر

واستحسن المعنى ، فأرسل رسولا مستعجلا لأبي الطيب ومعه رقعة فيها البيتان يسأله إجازتها ، فقال المتنبي أبياته المشهورة :

رضاكَ رضاي الذي أوثر ... وسرّك سرّي فما أظهر الخ

وديوان المتنبي وغيره من الشعراء مملوء بهذه الأمثال .

ثم مجلسه الأدبي الحافل في حلب ، والذي قلَّ أن يكون له نظير ؛ فالشعراء والأدباء في مجلسه يثيرون الموضوعات المتنوعة ، ويساهم فيهـا سيف الدولة ، ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه ، ويجزل العطاء لمن أجاد ؛ فأحياناً يستذكرون الشعر القديم ، وأحياناً يسألهم اجازة شعر ، وأحياناً مسألة نحوية . واخرى مسألة لغوية ، حسبما اتفق ؛ فمثلاً مرة ينشئ سيف الدولة هذا البيت :

لكَ جسمي تُعِلُّه فدمي لِمْ تُحِلُّه

ويطلب من أبي فراس أن يجيزه فيقول :

أنا إن كنت مالكاً فلِيَ الأمر كله

ومرة يسأل المتنبي أن يعيد انشاد قصيدته :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وكان سيف الدولة يحب هذه القصيدة ويستعيدها ، فلما وصل الى قوله :

وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقف كأنك في جفنِ الردى وهو نائم
تمرّ بك الأبطالُ كَلْمى هزيمةً وَوَجهُكَ وضّاحٌ وثغرك باسم

قال سيف الدولة : قد انتقدنا عليك هذين البيتين ، لأن الشطرين لا يلتئمان ، وكان خيراً أن تخالف بينها فتقول :

وقفت وما في الموت شك لواقف ووجهك وضاح وثغرك باسم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة كأنك في جفن الردى وهو نائم

وهو نقد دقيق ، وإن كان المتنبي قد رد عليه فقال : « إن الثوب لا يعرفه البزاز معرفة الحائك » .

وسأل سيف الدولة مرة مَن في مجلسه : هل تعلمون اسماً ممدوداً وجمعه مقصور ؟ فلم يجيبوا جواباً الا ابن خالويه فقال عذراء وعذارى ، وصحراء وصحارى . وهكذا كان مجلسه حافلاً بالأدب والنقد .

وهو مع ذلك شاعر غير انه مقل ، فقد رويت له في كتب الأدب

أشعار ، وان كان كثير منها قد نسب لغيره في بعض دواوين الشعراء . فلعله كان يتغنى بها فيظن بعض الناس انها له ، ولكن بعضهـا يكاد يجمع الرواة على أنه لسيف الدولة ، كقوله في جارية رومية له كان يهواها ويخشى عليها من حظاياه ، فأودعها قلعة وقال :

راقبتني العيون فيكِ فأشفقـ ـتُ ولم أخلُ قط من إشفاق
ورأيت العـذول يحسدني فيـ ـك مُجِدًّا يا أنفس الأعلاق
فتمنيت أن تكوني بعيداً والذي بيننا من الود باق
رب هجر يكونُ من خوف هجر وفراقٍ يكون خوف فراق

وقال :

تجنّى عليَّ الذنبَ والذنبُ ذنبُه وعاتبني ظلماً وفي شقه العتب
وأعرض لما صار قلبي بكفه فهلا جفاني حين كان ليَ القلب
إذا برِمَ المولى بخدمة عبده تجنّى له ذنباً وإن لم يكن ذنب

سيف الدولة هذا الفنان الناقد الشاعر الملك ، هو الذي اتصـل به المتنبي .

كان المتنبي بعد خروجه من سجنه لدعواه النبوة ، أو لما قيل من دعواه النبوة بائساً فقيراً ناقماً على الزمان وأهله ، يشعر بعظمته وعلو نفسه ؛ ثم لا يجد لهذه العظمة منفذاً ؛ فهو يتردد على من يسميهم الناس عظماء ، فيمدحهم فلا يجد عندهم تقديراً لنفسه ولا لشاعريته ، حتى رووا انه مدح علي بن منصور الحاجب بقصيدته التي مطلعها :

بأبي الشموسُ الجانحاتُ غواربا اللابساتُ من الحرير جلابيا

فأعطاه عليها ديناراً واحداً فسميت القصيدة الدينارية .
وقالوا إن أكثر ما نال على شعره قبل اتصاله بسيف الدولة كان مائة دينار منحها له الأمير أبو محمد الحسن بن عبيد الله بن طُغج بالرملة .
فكان اتصاله بسيف الدولة صفحة جديدة في أدبه ، وصفحة جديدة في رخاء عيشه .

كان أبو الطيب يتنقل في ربوع الشام مادحاً من يخاله كريماً محسناً، حتى نزل على أبي العشائر، عم سيف الدولة، وعامل أنطاكية، ومدحه بقصائد كثيرة، يقول فيها:

شاعرُ المجدِ خِدنُهُ شاعرُ اللفْـ ظِ كلانا ربُّ المعاني الدِّقاقِ
لم تزلْ تسمعُ المديحَ ولكـ نْ صهيلَ الجيادِ غيرُ النهاقِ

وسار مع أبي العشائر سيرة مصغرة للسيرة التي سارها بعد مع سيف الدولة.

في شهر جمادى الآخرة من سنة ٣٣٧ هـ زار سيف الدولة انطاكية، وكان بها أبو الطيب. وكان قد سمع سيف الدولة به وبشعره، ورأى أن يزين به بلاطه، فقدمه اليه أبو العشائر، وعرض عليه أن يكون شاعره.

كان غير أبي الطيب من الشعراء لو عرض عليه مثل هذا العرض يطير فرحاً، ويرى أن ذلك أمنية الأماني وسعادة الدهر. ولكن أبا الطيب تردد طويلا، وأداه تردده أن يشترط. لم يشترط مالاً يعطاه، ولا جائزة ينالها، وهو لهذا ضامنٌ. ولكنه اشترط ألا يعامَل معاملة سائر الشعراء، لأنه ليس شاعراً فحسب، بل شاعراً وعظيماً. وقد سمع أن الشعراء يذلون لسيف الدولة ذلة لا يرضاها لنفسه؛ سمع أنهم يقبّلون الأرض بين يديه، وانهم ينشدون شعرهم وهم وقوف أمامه؛ فاشترط ألا يكون شيء من ذلك، انما يكون «ملك الشعراء يمدح ملك الناس»؛ فاذا كان سيف الدولة راكباً مدحه المتنبي وهو راكب، إذا كان جالساً مدحه وهو جالس، ثم لا يظهر بمظهر الخضوع من تقبيل الأرض ونحوه.

وعرف سيف الدولة منزلته وشهرته، وأنه سيكون صوتاً مدوياً في العالم العربي يشيد بذكره فقبل شروطه.

لبث المتنبي مع سيف الدولة نحو عشر سنين من سنة ٣٣٧ إلى سنة ٣٤٦ أغلبها في حلب، وقال فيها نحو ثلث شعره كمّاً، وأجود شعره كيفاً.

لم يجُدْ شعر المتنبي في زمنٍ جودته أيام سيف الدولة لأسباب: أهمها أن المتنبي لم يجد ما يغذي نفسه وعواطفه في نواحيها المختلفة كما وجدها في هذه الأيام، فالمتنبي عربي يعتز كل الاعتزاز بعربيته؛ فكان يحتقر كافوراً لأعجميته، ويسب ابن خالويه لأعجميته، ويقول في أبياته:

تُهابُ سُيُوفُ الهندِ وهي حدائدٌ فكيف إذا كانت نِزاريةً عُرْبا

وجرى ذكر ما بين العرب والأكراد من الفضل، فسأل سيف الدولة المتنبي ما تقول؟ فقال:

إن كنتَ عن خيرِ الأنامِ سائلا فخيرُهُم أكثرُهُم فضائلا
من كنتَ منهم يا هُمامُ وائلا الطاعنـين في الوغى أوائلا
والعاذلين في الندى العواذلا قد فضلوا بفضلك القبائلا

فكان — لهذا — إذا مدح كافوراً وغيره لم يخلص ولم يواته طبعه، وإذا مدح سيف الدولة مدح عربياً لا يرى غضاضة في مدحه، وانثالت عليه المعاني العربية انثيالا.

وكان المتنبي وسيف الدولة لِدَيْن، شاء الله أن يولدا في سنة واحدة سنة ٣٠٣، واصطحبا وسنهما أعز أيام الشباب، فقضيا معاً من سن ٣٤ إلى ٤٤، والعواطف تمازج وتتحاب؛ إذا تقاربت في السن واتفقت في الشباب.

وسيف الدولة فارس والمتنبي فارس، كلاهما يعشق الخيل والضرب والطعان، فان خرج سيف الدولة فارساً خرج المتنبي فارساً، وقد صحبه في عدة غزوات إلى بلاد الروم، ومنها غزوة قالوا إنه لم ينج منها إلا سيف الدوله وستة نفر من صحبه أحدهم المتنبي، فاذا شعر المتنبي في الغزوات

والقتال والشجاعة والحرب فانما يستمد ذلك من نفسه . ومن شعوره ، لا من ألفاظ حشاها في رأسه بنظمها ولا تتصل بقلبه .

ثم ما أغدق عليه سيف الدولة من مال لم يحلُمْ به ولم تره عينه من قبل ؛ وكان المتنبي محباً للمال حباً لا يتناسب وطلبه المجد وعلو همته ، وقد علله هو بأن ذلك يرجع الى أيام صباه يوم كان لا يجد قوت يومه ، فعلمه ذلك قيمة المال والشهوة اليه والحرص عليه ، ويعبر عما في نفسه من ذلك فيقول :

ولا ينتحلْ في المجد مالُكَ كلُّه	فينحلَّ مجدٌ كان بالمال عقدُه
ودبِّرْه تدبيرَ الذي المجدُ كفُّه	إذا حارب الأعداءَ والمالُ زندُه
فلا مجدَ في الدنيا لمن قلَّ مالُه	ولا مالَ في الدنيا لمن قلَّ مجدُه

فغذاه سيف الدولة من هذه الناحية حتى أتخمه ، وكان في سيف الدولة الأريحية العربية والكرم العربي فتقابلت هذه الصفة مع شَرَه المتنبي وطمعه ، فكان يعطيه في كل سنة نحو ثلاثة آلاف دينار ، غير الهدايا من أفراس وجوار وسيوف ، وأقطعه مرة إقطاعاً بناحية معرة النعمان كان يخرج اليها المتنبي أحياناً ، فزاد العطاء في فصاحة المتنبي وحمله على العمق في استخراج المعاني ، والأشياء تفتح اللُّها .

وفوق هذا وذاك فقد كان كل الوسط الذي حول المتنبي أيام سيف الدولة يتطلب منه الاجادة . فلقد كان حوله شعراء عديدون نابهون كأبي فراس والنامي والببغاء وابن نُباتة وغيرهم ، ونقاد ونحاة ولغويون ، والملك على رأسهم يشعر وينقد ويقدر ، ويأتي من أعمال الفروسية والبطولة ما ينطق العي .

فكيف بعد ذلك كله لا يكون عصر المتنبي مع سيف الدولة خير عصوره وأحسنها انتاجا . وقد سئل هو نفسه في ذلك : لم تراجع شعره بعد مفارقة آل حمدان فقال : قد تجوزت في قولي وأعفيت طبعي ،

واغتنمت الراحة ، منذ فارقت آل حمدان . وفيهم من يقول (تسائلني من أنت وهي عليمة) يعني أبا فراس ، وفيهم من يقول :

وقد علمتْ بما لاقتهُ منّا	قبائلُ يعرُبٍ وبني نزار
لقيناهم بأرماحٍ طوال	نبشِّرهم بأعمارٍ قصار

يعني أبا زهير بن مُهلْهِل الحمداني .

وفيهم من يقول :

أأخا الفوارس لو رأيتَ مواقفي	والخيل من تحت الفوارس تنحط
لقرأت منها ما تخط يدُ الوغى	والبيضُ تَشكُلُ والأسنة تنقط

يعني أبا العشائر . اهـ .

وهكذا اجتمعت كل هذه الأسباب على إحسان المتنبي في هذه الفترة كل الاحسان . وان كان ذلك الخوف من الناقدين ، والعمق في إعمال الفكر ، أخرجه أحياناً إلى ما يسميه النقاد بالخيال الواهم ، ويعنون به في الخيال إلى حد الوهم .

-٢-

اتصل المتنبي بسيف الدولة وأصبح شاعر بلاطه الأول ، فأخذ يسجل أحداثه الحربية والمدنية تسجيلاً أدبياً . فان سجل المؤرخون الحقائق صرفة فالمتنبي يسجلها ممزوجة بعواطفه ومشاعره .

قد كانت هذه الفترة فترة غزوات متوالية من سيف الدولة الروم وللخارجين عليه من أقاربه وغيرهم ، فأخذ المتنبي يقول قصيدة لكل موقعة ، فقد ظفر بحصن بَرزُوَيه سنة ٣٣٧ فقال المتنبي قصيدته :

وفاؤكما كالرَّبع أشجاهُ طاسمُه	بأنْ تُسعِدا والدمعُ أشفاهُ ساجمُه

وحارب سيف الدولة القرامطة هذا العام ، واستقد منهم عمه أبا وائل ، فقال المتنبي قصيدته :

إلامَ طماعيةُ العاذلِ ولا رأيَ في الحبِّ للعاقلِ

وخرج هذا العام لنصرة أخيه ناصر الدولة على معز الدولة الديلمي ، فاضطر معز الدولة الى الصلح ، فقال المتنبي قصيدته :

أعلى الممالكِ ما يُبنى على الأَسَلِ والطعنُ عندَ محبيهنّ كالقُبَلِ

واستعد لغزو الروم سنة ٣٣٩ وأعد جيشه فقال المتنبي قصيدته :

لهذا اليوم بعدَ غدٍ أريجُ ونارٌ في العدوِّ لها أجيجُ

فلما انهزم سيف الدولة في هذه الوقعة قال قصيدته :

غيري بأكثر هذا الناس ينخدعُ إن قاتلوا جبنوا أو حدّثوا شجعوا

وقال : إن سبب الهزيمة ما لحق بسيف الدولة من الضعفاء والجبناء ، وإن كل غزوة بعد هذه الغزوة فلسيف الدولة النصرة . لأن جنوده قد نقيت من الأنذال ، ولم يبق فيهم الا الأبطال .

وبنى سيف الدولة مرعش سنة ٣٤١ ، فقال المتنبي قصيدته :

فديناك من ربعٍ وإن زدتنا كرباً فانك كنتَ الشرقَ للشمس والغربا

وجاء رسول ملك الروم إلى سيف الدولة يلتمس الفداء سنة ٣٤١ ، فقال المتنبي :

لقيتَ العفاةَ بآمالها وزُرتَ العداةَ بآجالها

وبنى سيف الدولة ثغر الحدث سنة ٣٤٣ ، فقال فيه المتنبي القصيدة المشهورة :

على قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ وتأتي على قدرِ الكرامِ المكارمُ

وهكذا كان كل عمل حربي يأتيه سيف الدولة يسجله المتنبي ويفلسفه ويؤدبه ، ويخرجه قصيدة رائعة .

وكذلك كان يسجل أحداث سيف الدولة المدنية ، فتموت أم سيف الدولة فيرثيها بقوله :

نُعدّ المشرفيةَ والعوالي وتقتلنا المنونُ بلا قتالِ

ويموت ابن سيف الدولة فيرثيه بقصيدة :

بنا منكَ فوقَ الرمل ما بك في الرمل وهذا الذي يُضني كذاك الذي يُبلي

ويموت غلام سيف الدولة «يماك» ، فيرثيه بقصيدته :

لا يحزنِ اللهُ الأميرَ فانني لآخذُ من حالاتهِ بنصيبِ

وتموت أخت سيف الدولة فيرثيها بقصيدته :

إن يكن صبرُ ذي الرزيئة فضلاً تكنِ الأفضلَ الأعزَّ الأجلا

ويمرض سيف الدولة فيقول المتنبي :

إذا اعتلّ سيفُ الدولة اعتلّت الأرضُ ومَن فوقها والبأسُ والكرمُ المحضُ

ويخرج لسيف الدولة دُمّل فيقول المتنبي :

أيدري ما أرابكَ مَن يُريبُ وهل ترقى إلى الفلكِ الخطوبُ

ويشفى سيف الدولة فيقول المتنبي :

المجدُ عوفيَ إذ عوفيتَ والكرمُ وزالَ عنكَ إلى أعدائك الألمُ

ويأتي عيد الفطر فيهنئه ، وعيد الاضحى فيهنئه .

وبذلك أصبح شعر المتنبي في هذه الفترة سجلا لكل أعمال سيف الدولة وأحداثه كبيرها وصغيرها ، سلمها وحربها ، أحزانها وأفراحها ، جدها وهزلها .

والمتتبع الديوان يرى أن شعر المتنبي في وصف حروب سيف الدولة ، وشعره في الحزن ؛ أرقى من شعره في المديح وشعر السرور . وسبب ذلك — على ما يظهر — أن نوع الشعر الذي يشتد اتصاله بنفس المتنبي ، يجود ويغزر - وقد كان المتنبي فارساً تعجبه الفروسية والبطولة ، فاذا قال في ذلك يستخرجه من أعماق قلبه . وكانت نفسه حزينة لأنه لم ينل المجد الذي يصبو اليه ، فيحزن حزناً عميقاً على الميت ، وهو في الحقيقة يحزن على ليلاه . أما السرور وأما المديح في غير البطولة فصناعته لا تمس إلا السطح الظاهري من قلبه .

وكما سجل المتنبي أحداث سيف الدولة ، سجل نفسه في مشاعرها المختلفة ، وانقباضها وانبساطها ، وأمنها واضطرابها . وكان المتنبي حاد الذكاء ، حاد المزاج ، صريحاً ، لا يستطيع أن يخفي ما في نفسه ، وقد توالت عليه أوقات شدة ورخاء ، وتتابعت عليه ساعات أمن وساعات قلق . وكان مضطرباً بين الرضا والغضب ، والبؤس والنعيم . ومما زاد الأمر صعوبة أن سيف الدولة من جنسه سريع الرضا ، سريع الغضب ، سمح الى آخر حدود السماحة ، منتقم الى آخر حدود الانتقام ، ينفعل أحياناً لقصيدة واحدة للمتنبي انفعالات متعاكسة ، فيعجبه البيت في مدحه فيطرب له أشد الطرب ، ويفخر المتنبي عليه بنفسه فيهيج أشد الهياج — وطبعان على نمط واحد بهذا الشكل لا يمكن أن يسودهما الصفاء التام ولا الجفاء التام ، فاذا ساد الصفاء فسرعان ما يتعكر ، واذا اعتكر فسرعان ما يصفو . وهكذا كان حالهما دائمـــاً ، فترى سيف الدولة يعطي المتنبي الالوف في لحظة ، ويرضى عن قتله في لحظة ، وترى المتنبي له عينان ، عين في المجد وعين في المال ، يأخذ المال فيرضى ، وينظر المجد فيثور ، والمجد في نظره أن يسود هو ، ولا يكون مسوداً لأحد ، حتى ولو كان سيف الدولة .

وبجانب ذلك كان بلاط سيف الدولة مسرحاً تمثل فيه دسائس كثيرة للمتنبي ؛ فقد كان فيه شعراء كثيرون ، كانوا شعراء سيف الدولة قبل المتنبي وأيامه ، وكانوا ذوي حظوة كبرى عند سيف الدولة ، فكسفهم المتنبي ، وعلاهم بنفسه وبشعره ؛ فكان من الطبيعي أن يحقدوا عليـــه ويدسوا له ، وغير الشعراء من الادباء والعلماء كذلك ، يرون المتنبي يأخذ أكثر مما يأخذون ، وينال القرب من سيف الدولة أكثر مما ينالون ، فكيف لا يغضبون ؟

وربما كان أشد من هؤلاء عداوة له أبو العباس النامي الشاعر وأبو فراس وابن خالويْه النحوي اللغوي .

كان سيف الدولة يميل الى النامي قبل المتنبي ، فلما جاء المتنبي مال عنه ، فغاظ ذلك النامي ، وخلا يوماً بسيف الدولة وعاتبه وقال له : لم تُفضِّلْ عليَّ ابن عَبْدان السقا ؟ (يعني المتنبي) فأمسك سيف الدولة عن الجواب . فلما ألح قال سيف الدولة : لأنك لا تحسن أن تقول كقوله :

يعودُ من كل فتحٍ غيرَ مفتخر وقد أغذَّ اليه غيرَ محتفلِ

فنهض مغضَباً ، واعتزم ألا يمدحه أبداً !

وأبو فراس يقول لسيف الدولة : « إن هذا المتشدق كثير الادلال عليك ، وانت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد ، ويمكن أن تفرق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره » .

ويأخذ دائماً المسالك على المتنبي ، فاذا قال بيتاً جميلاً قال أبو فراس إنك سرقته من قول بشار ، أو من قول دعبل .

ويتجادل المتنبي وابن خالويه في مسألة لغوية ، فيغضب ابن خالويه (وهو أستاذ سيف الدولة) فيخرج من كمه مفتـــاحاً حديداً ليلكم به المتنبي .

وهكذا كان بلاط سيف الدولة حرباً علنية وخفية على المتنبي . ولم يخلص المتنبي من حول سيف الدولة من الشعراء إلا أبو الفرج الببغاء . فقد كان المتنبي يأنس به ويبثه شكواه من سيف الدولة وممن حوله ويأتمنه على سره ؛ وقد ساعدت طباع أبي الطيب على نجاح هذه الدسائس فهو يتعاظم فيغضّب الشعراء ، بل ويتعاظم فيغضب الأمير ، وهو دائم الاعلان عن نفسه والفخر بهما ؛ ويجفو سيفُ الدولة فيجفو المتنبي ويتكلم سيف الدولة فيجيبه المتنبي ، وتأتي المناسبات ليقول الشعراء وتنتظر سيف الدولة من المتنبي أن يقول فلا يقول ، والمتنبي حار النفس بين المجد والمال ، يجفو مجداً ، فلا يمعن في الجفاء مالا ، ويصدر لأنفته ، ويخضع لطمعه ، وهي حال تُربك النفس وتفقد الحياة .

هذا كله قد سجله المتنبي أيضاً في شعره في سيف الدولة ، فمن السنة الثانية لاتصاله بسيف الدولة يذكر الحسد ويذم الناس ويقول :

فأبلغْ حاسديَّ عليَّ أني كبا برقٌ يحاولُ بي لحاقا
وهل تُغني الرسائلُ في عدوٍّ إذا ما لم يكنَّ ظُبىً رقاقا
اذا ما الناسُ جرَّبهمْ لبيبٌ فاني قـد أكلتُهُمْ وذاقا
فلم ارَ وُدَّهمْ الا خداعاً ولم أرَ دينَهُمْ إلا نفاقا

ويتمنى لو تعطي الملوكُ على أقدار الناس ، فلم يكن ينال الخسيسُ شيئاً

ليتَ الملوكَ على الأقدارِ مُعطيةٌ فلم يكن لدنيءٍ عندَها طمَعُ

ولعل أوضح ما يدل على هذه الحال قصيدته التي مطلعها :

واحرَّ قلباه ممن قلبه شَبِمُ ومن بجسمي وحالي عنده سقَمُ

فهي تصور هياج نفسه أشد هيـاج ، فهو لا يعبأ بسيف الدولة إلا مداراة ، ولا يعبأ بمن حوله من الناس ومن الشعراء ، ويمدح سيف الدولة ليمدح نفسه ، ويعرض بأبي فراس وغيره من الشعراء :

يا أعدلَ الناس إلا في مُعاملتي فيكَ الخصامُ وأنت الخصمُ والحكمُ
أعيذُها نظراتٍ منكَ صادقةً أن تحسبَ الشحمَ فيمن شحمه ورمُ
وما انتفاعُ أخي الدُّنيا بناظرِهِ إذا استوتْ عنده الأنوارُ والظلَمُ
سيعلمُ الجمعُ ممن ضم مجلسُنا بأنني خيرُ من تسعى به قدمُ
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعتْ كلماتي من به صممُ

* * *

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

* * *

ما كان أخلقَنا منكم بتكرمةٍ لو أن أمرَكُمُ من أمرنا أمَمُ

* * *

كم تطلبون لنا عيباً فيُعجزُكم ويكرهُ اللهُ ما تأتونَ والكرم
ما أبعدَ العيبَ والنقصانَ من شرفي أنا الثريا وذانِ الشيبُ والهرمُ

ثم يهدد بالرحيل :

إذا ترحَّلتَ عن قومٍ وقد قدَروا ألا تُفارقَهُمْ فالراحلونَ هُمُ
شر البـلاد مكانٌ لا صديق به وشر ما يكسبُ الانسانُ ما يَصِمُ

ثم يطعن الشعراء حوله فيقول :

بأي لفظ تقول الشعر زعنفةٌ تجوزُ عندك لا عُرْبٌ ولا عجَمُ
هـذا عتابُكَ إلا أنه مِقَـةٌ قد ضُمِّنَ الدُّرَّ إلا أنه كَلِمُ

قصيدة — من غير شك — من أقوى شعر المتنبي ، سكب فيها نفسه ، ولم يعبأ بمقام أحد ، وكانت كافية لأن يطرده سيف الدولة شر طردة ، ولكن — كما قد قلت قبل — ان سيف الدولة من جنس المتنبي ، فلئن كانت القصيدة أغضبته أشد الغضب فقد جاء فيها :

إن كان سرَّكم ما قال حاسدُنا فما لجُرحٍ إذا أرضاكمُ ألَمُ

وهذا أطرب سيف الدولة أيما طرب .

وانتهت المعركة بأن أعطى سيف الدولة المتنبي ألفاً وألفاً ، فقال المتنبي :

جاءت دنانيرك مختومة عاجلةً ألفاً على ألف
أشبهها فعلُكَ في فيلق قلَّبْتَه صفاً على صف

ولكن إن انتهت هذه الحادثة فلا بد أن يعقبها حوادث مثلها ما دام سيف الدولة والمتنبي على ما هما والبلاط على ما هو .

وظل المتنبي يتعاظم في شعره ويعرِّض بغيره من الشعراء ، ويقول لسيف الدولة :

إن هذا الشِّعرَ في الشِّعرِ مَلَكْ سار فهو الشمس والدنيا فلك
عدل الرحمن فيـه بيننـا فقضى باللفظ لي والحمد لك
فاذا مـار بأذني حاسد صار ممن كان حياً فهلك

وشاء القدر أن يكون آخر شعر في سيف الدولة من هذا القبيل وعلى هذه النغمة وهو :

لا تطلبنَّ كريماً بعد رؤيته ... إن الكرام بأسخاهم يداً ختموا
ولا تبال بشعر بعد شاعره ... قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

وظلت السعايات تعمل ، فابن خالويه وغيره يلح في الايقاع بالمتنبي ، والمتنبي يمعن في تعاليه حتى فاض الاناء ، فملَّ سيف الدولة كثرة القول في المتنبي ، وملَّ المتنبي كثرة الغضب والعتاب ، فتلاقت رغبة المتنبي في الخروج من حلب برغبة سيف الدولة في الراحة مما ينظر ويسمع ، فرحل المتنبي الى مصر ، وأسدل الستار عن فصل من رواية المتنبي ، وان كانت الرواية لم تتم فصولا .

وفي الحق ان الزمان أخطأ فوضع المتنبي في غير موضعه ، اعطاه نفس ملك ولسان شاعر ، ووقفه بدف على أبواب الأمراء يمدحهم ، وهو إذ يمدحهم يرى منزلته — حقاً أو باطلا — فوق منزلتهم ؛ فكان شأنه شأن كثير من الناس لا تتلاءم نفسيتهم ومنصبهم ، نفس رئيس ومنصب مرؤوس ، أو نفس حرب ونضال ومنصب ذلة وهوان ؛ وهذان العنصران اذا اجتمعا سببا شقاء صاحبها ؛ لذلك كانت نفس المتنبي ثائرة دائماً . ومن يدري ؟ لعل ما منحتنا من شعر جزل جميل كان نتيجة هذا العناء ، ولو تلاءم منصبه ونفسه لأخلد الى الراحة ؛ فكم كان الشقاء والبؤس والفقر والاضطهاد والعذاب نعمة على الانسانية بما أخرجت من شعور نبيل وفن جميل .

وبعدُ ، فمع هذا كله لم يجد المتنبي عوضاً عن سيف الدولة في علو شأنه وكرمه وعربيته وذوقه وفروسيته ؛ وخرج ينشد الملك في مصر وغير مصر فلم ينل ملكا ولم يجد ممدوحا ينطقه بالمعاني كما أنطقه سيف الدولة ، وعرَّض في أول أمره بمصر بسيف الدولة ، ولكنه أدرك الحقيقة المرة بعدُ ، فتاب وأناب وندم على ما كان ، وحن الى سيف الدولة وحن سيف الدولة اليه ، فيقول من قصيدة في غير ديوانه :

عثرتُ بسيري نحو مصر فلا لعاً ... بها ولعاً بالسير عنها ولا عثرا
وفارقتُ خير الناس قاصد شرهم ... وأكرمَهم طُرّاً لألأمهم طرا
فعاقبني المخصيُّ بالغدر جازياً ... لأن رحيلي كان عن حلب غدرا
وما كنت إلا فائل الرأي لم أُعن ... بحزم ولا استصحبت في وجهتي حِجرا

لقد كان المتنبي حين فارق سيف الدولة يعتقد أنه غدر به فيقول :

حَبَبْتُكَ قلبي قبل حُبِّكَ من نأى ... وقد كان غدّاراً فكُنْ أنتَ وافيا

ولكن مرور الزمان ، وتكشف الحوادث وخيبة الأمل في غيره جعلته يرى غير رأيه الأول ، وان المتنبي لا سيف الدولة كان هو الغادر ، إذ يقول : « لأن رحيلي كان عن حلب غدرا » .

وحن سيف الدولة إلى المتنبي ، فبعث اليه ابنه من حلب الى الكوفة ، بعد أن خرج من مصر ، وبعث اليه مع ابنه هدية ، فكتب اليه المتنبي قصيدته التي يقول فيها :

ليس إلاّكَ يا عليُّ هُمامٌ ... سيفُهُ دونَ عِرْضِه مَسلولُ

* * *

أنتَ طولَ الحياة للروم غازٍ ... فمتى الوعدُ أن يكونَ القُفولُ

* * *

ما الذي عنده تدار المنايا ... كالذي عنده تُدار الشَّمولُ

* * *

من عَبيدي إن عشتَ لي ألف كافو ... رٍ ولي من نداك ريفٌ ونيلُ
ما أبالي إذا اتّقتْكَ الليالي ... من دهتْهُ حُبُولُها والخُبُولُ

ثم بعث اليه سيف الدولة كتاباً بخطه يسأله المسير إليه فاعتذر بالوشايات .

وما عاقني غير خوف الوُشاة ... وإنّ الوشاياتِ طُرْقُ الكَذِب

كان ذلك في سنة ٣٥٣ ، ولم تطل مدة المتنبي بعدُ ، فقد قتل في السنة التي تليها ، وهي سنة ٣٥٤ ، كلاهما يحمل نفساً حبيباً الى صاحبه .